

ثنائية الشرق والغرب في رواية شيفرة بلال لأحمد خيرى العمري
The Duality of East and West in the Novel "Bilal's Code" by Ahmed

Khairy Al-Omari

زموور كنزة *

Kenza zemmour

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة.
جامعة جيجل، 18000 جيجل، الجزائر، كلية الآداب واللغات.

University of jijel, 18000 jijel (Algeria)

kenza.zemmour@univ-jijel.dz

تاريخ النشر: 2025/03/02	تاريخ القبول: 2024/12/26	تاريخ الإرسال: 2024/09/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

إن العلاقة التاريخية والثقافية والدينية المتحكممة في ثنائية الشرق والغرب تفرض حالة التنافر والتضاد المطلق الرابطة بينهما، وانطلاقاً من ذلك مثل التضاد ظاهرة فنية وبلاغية شديدة التأثير في التشكيل الجمالي داخل رواية "شيفرة بلال" لـ "أحمد خيرى العمري" نتيجة لتجاوز وتزامم الأشكال الخطائية المعبرة عن الشرق تارة وعن الغرب تارة أخرى داخل منتهى السردى القائم على الصراع الفكرى بين هذين المتناقضين، والمنبثق أساساً من طبيعة العلاقة المتضاربة بين المقاصد التبليغية المستهدفة من قبل الكاتب في العالم التخيلي الذي يصوره ونظيرتها من المفاهيم الرائجة في العالم الواقعي، ومنه فالرواية تمثل صراعاً مزدوجاً بين الأنا والآخر. الكلمات المفتاحية: شيفرة بلال، أحمد خيرى العمري، شرق، غرب، ثنائية، بلال بن رباح.

Abstract :

The historical, cultural, and religious relationship controlling the duality of East and West imposes a state of absolute dissonance and opposition linking them. Based on this, the opposition represents an artistic and rhetorical phenomenon that has a strong impact on the aesthetic formation within the novel "Bilal's Code" by "Ahmed Khairy Al-Omari" because of the juxtaposition and crowding of rhetorical forms expressing the East at times and the West at other times. Which exists in its narrative text based on the intellectual conflict

* كنزة زموور: kenza.zemmour@univ-jijel.dz

between these two contradictions, and stemming primarily from the nature of the conflicting relationship between the communicative purposes targeted by the writer in the imaginary world he depicts and their counterparts from the concepts prevalent in the real world. Therefore, the novel represents a double conflict between the self and the other.

Keywords: Bilal's Code, Ahmed Khairy Al-Omari, East, West, Duality, Bilal bin Rabah.



مقدمة:

امتازت رواية "شيفرة بلال" للكاتب العراقي "أحمد خيرى العمري"، بكونها خطاباً سردياً منفتحاً على عوالم نصية متعددة خيالية وتاريخية، تتعالق فيما بينها من خلال استراتيجية الارتداد الزمني التي تسمح بالانتقال بين الماضي والحاضر عبر روابط الفهم الإنساني للوجود وللإنسان في ذاته أيضاً، ضمن حالة من التفاعل المستمر الذي تتقاطع من خلاله الذات الشرقية مع الآخر الغربي عبر بنى نصية متعددة تبرز هيمنتها على فعل الحركة والتحول في العملية السردية، ويهدف فهم هذه العلاقة الثنائية يطرح البحث الإشكالية التالية:

كيف تجلت ثنائية الشرق والغرب في رواية "شيفرة بلال" سواء من خلال تركزها في بعد زمني واحد أو

من خلال تقابلها في محورين زمنيين متباعدين يصوران التفاعل بين الماضي والحاضر؟

عمدت الدراسة إلى تقسيم المحاور البحثية إلى أربعة أجزاء تتناسب والعناصر النصية التي تجلت من خلالها هذه الثنائية بدايةً من العتبة النصية باعتبارها تمثل مدخلاً نصياً لا يمكن تجاوزه في عملية استنتاج النص انطلاقاً من كونها تمثل انعكاساً مباشراً للقيمة المهيمنة على البنى الخطائية، بالإضافة إلى البنيتين الزمنية والمكانية اللتين عرفتنا ترنحاً مستمراً بين الشرق والغرب، ونهايةً بثنائية الرجل والمرأة باعتبارها أحد الأشكال النمطية التي جسدت هذه العلاقة الثنائية بين الشرق والغرب في العديد من النصوص السردية العربية.

انطلاقاً من طبيعة البحث اعتمدنا في قراءتنا لثنائية الشرق والغرب على منهج مركب يجمع بين النقد الثقافي الهادف إلى محاور البنية التحتية والمقاصد الخفية التي يطرحها الكاتب، والمنهج السيميائي المستخدم اجرائياً في قراءتنا لغلاف الرواية باعتباره فضاء نصياً محملاً بالعلامات السيميائية المعبرة عن الروابط العلائقية بين عتبة الغلاف والخطاب السردى.

أولاً- ثنائية الشرق والغرب في العتبة النصية:

تعدّ العتبات النصية أحد أهم المفاتيح النقدية التي تبلورت في ظل التحولات الفكرية الكبرى التي عرفتها مراحل نقدية جديدة سعت إلى خرق عزلة النص وتفجير كل الطاقات النصية والعلاماتية المتصلة به والمساهمة

في إنتاج بلاغته، وتتأق أهمية انطلافا من كونها علامة دلالية كثيفة تحيط بالنص الأصلي عبر نسيج من العلاقات التفاعلية السطحية والعميقة والقائمة على فعلي التأثير والتأثير بين الخطاب الأصلي والخطابات الموازية له وفقا لمبادئ التكامل والانسجام والتوافق، لتشكل بذلك حضورا مثقلا بالدلالات المقروءة والمرئية والتي لا يمكن تجاوزها أو تهميشها في عملية استنطاق النص خاصة مع كونها تمارس تأثيرا مدروسا في بناء التوجه الأولي للقارئ إزاء النص، وعليه نحاول رصد ثنائية الشرق والغرب في نص العتبة نزولا بموجب التحاور الدلالي المطلوب بين النص السردي وخطابه الموازي.

1- ثنائية الشرق والغرب في عتبة العنوان:

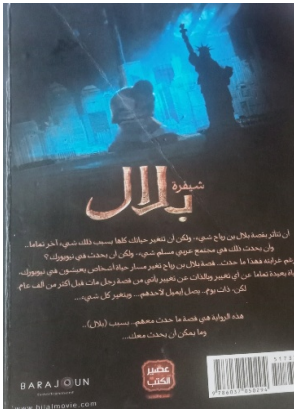
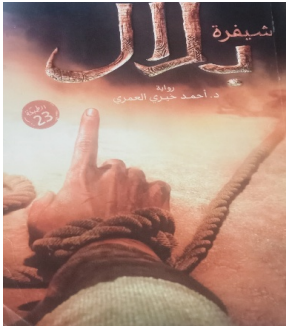
إن السؤال الجوهرى الذى نطرحه فى قراءتنا لنص العنوان " شيفرة بلال " هو سؤال المقصدية، القائم على العلاقة الثنائية بين الكاتب والعنوان كقطبين فاعلين فى العملية التواصلية لهذه العتبة النصية، بغية الوصول إلى دواعي الاختيار التى أسست لـ «اختزال مدلولات النص الكبير وإفراغها فى النص الصغير»¹ والمتصلة بقدرته النصية فى حشد التحولات الدلالية الموجودة فى النص وحشدها «فى أعلى اقتصاد لغوى ممكن»²، وقد انعكست ثنائية الشرق والغرب المحرك الأساسى للنص السردى على العنوان من خلال آلية التناص، والتى تجلت عبر شكلين مختلفين أولهما أدبى وثانيهما تاريخى، حيث يحيلنا الشكل الأول إلى البيئة الغربية من خلال تداوله مع نص أدبى يعد أحد الروائع الأدبية الغربية، هو "شيفرة دافيشي" للكاتب الأمريكى "دان براون"، والتى قد تشكل توقعا مبدئيا عند القارئ باستنساخ الرواية أو تعريبها، فيلمس من خلالها بوادر الحضور المزدوج للثقافتين الغربية والعربية، وبالعودة إلى مقاصد الكاتب التى عملت بداية على لفت انتباه القارئ إلى هذا التقاطع النصي، بالإضافة إلى خدمة الأطر الدلالية بداية باستعمال جنسية الكاتب الأمريكية فى الإشارة إلى الفضاء المكافئ الممثل فى مدينة نيويورك، والمؤثرة بطبيعة الحال فى رسم عقلية أو ثقافية أو نمطية التفكير السائدة عند الشخصيات الروائية، كما لا يمكننا تجاهل ضرورة الانسجام بين العوالم النصية الحاضرة والمستحضرة، والذى عمل من خلاله الكاتب إلى الإبانة عن الطابع الدينى والفلسفى الذى اتسم به النص المستحضر وهو رواية "شيفرة دافيشي" ويتوقع أن يطبع رواية "شيفرة بلال" الممارسة لسلطة التطويع على النص الأول، وإن كانت الآلية الفكرية متباعدة بين النصين.

يمكن أن تتلمس الثقافة العربية من خلال نص العنوان عبر التناص التاريخى الذى يتجسد من خلال استدعاء أحد الشخصيات التاريخية الإسلامية، وهو شخصية الصحابي الجليل "بلال بن رباح" والذى يحظى بحضور دائم فى الوعي الجماعى العربى، والتى تقود العقل إلى استحضار مجموعة من القيم الإنسانية الملخصة لمسار حياته بين العبودية والإسلام، وهو ما يشكل أفق توقع مواز للأول حول طبيعة الرواية التى يمكن أن تكون سيرة أدبية لحياة الصحابي الجليل، أو حضوره كشخصية مؤثرة فى سير الأحداث فـ «الشخصيات التاريخية الفذة بوجه عام، ليست مجرد ظواهر إنسانية عابرة تنتهى بانتهاء دورها فى الحياة أو بغيابها ولكنها تبقى ذات

شمولية قابلة للتجدد على امتداد التاريخ»³، وهذا التعدد في رسم الأفق الأولي لمسار النص يمارس وظيفة تأثيرية على القارئ المدفوع برغبته في فك شيفرة التناقض النصي الذي تمارسه عتبة العنوان.

2- ثنائية الشرق والغرب في عتبة الغلاف:

إنّ الدراماتيكية الاستعراضية المميزة لعتبة الغلاف تمثل تمظهرًا إشهاريا قائمًا على استراتيجية جذب الانتباه الممارسة على القارئ كاستهداف في إقامة العملية التواصلية والتي يبنى عليها النشاط القرائي، إلا أنّ هذا الفضاء السيميائي منوط كذلك بوظائف دلالية قائمة على التداخل بين الفضاء اللساني الذي يقدمه النص السردي والفضاء الأيقوني لمناص الغلاف، وعليه يمكن وصفه بأنه «رسالة أيقونية تعيد إنتاج نصها مكثفا وباقتصاد بصري مثل العنوان تماما»⁴، ومن خلال ملاحظة الفضاء السيميائي لغلاف الرواية يمكن القول بكونه امتدادا للأبعاد الدلالية التي تقدمها عتبة العنوان انطلاقا من علاقة التجاور التي تحكمها كجزئين من كل أشمل هو الخطاب الموازي، وعليه يعمل الكاتب على تعميق إحساس القارئ بالصراع الثنائي بين الشرق والغرب في متن الرواية، فالتوقع الذي يرسمه العنوان بين كون الرواية أحد الاثنين يعدله الغلاف ليشكل أفقا جديدا يشمل كليهما معا.



تتمظهر ثنائية الشرق والغرب عبر عتبة الغلاف بشكل منفصل يعبر عن الانفصال الفكري بينهما، حيث تبرز أولها من خلال الواجهة الأمامية، بينما يؤجل ثانيها إلى الغلاف الخلفي، وهذه الأسبقية تحمل بالضرورة أبعادا دلالية يضمها النص، حيث نلمح على الواجهة الأمامية مشهدا استرجاعيا يعيد بناء حادثة تعذيب الصحابي الجليل بلال بن رباح في صحراء مكة ليعدل عن إسلامه، إذ تظهر على اليد الممدودة آثار التعذيب كما تشير وضعيتها إلى التصاق الشخص المعذب بالأرض بغية إزالته، بينما يرمز الحبل إلى القيد المجسد لمرحلة العبودية من حياته وتصدع السبابة الممدودة للشهادة بصرخات التوحيد التي كان يدوي بها لترسم طريقه نحو الحرية، أما القيمة اللونية المضافة إلى الصورة فقد جاءت لتجسد الطبيعة المكانيّة، فمن خلال التدرجات المتفاوتة للون البرتقالي تحضر صحراء مكة لتعبر عن بيئتها وبدويتها وشمسها وجاهليتها وإسلامها وروحانياتها.

تمثل الواجهة الخلفية الجزء الناقص من الصورة الكاملة التي يستهدفها المسار الحكائي للنص السردي، وهي تعبر عن الجزء الغربي والبيئة المكانيّة الثانية التي تمثلها مدينة نيويورك بأمریکا، فتتقدمها في صورتها المادية ومبانيها العالية، حيث يعبر اللون الأزرق المنبعث منها عن نور أضوائها الليلية

وضيغها الدائم وحياتها التي لا تسكن، ويتقدم الصورة تمثل الحرية (الحرية تنبر العالم) رمز أمريكا وتجسيد لفكرها التحريري الذي يقدس إرادة الفرد، ولكن الغلاف يقدمه كظل وليس كصورة، والظل رمز للحقائق المهمة أو الحقائق التي لا نريد إظهارها، أو الجزء الخفي من المشهد، فالظل هو انعكاس لطاقة الوهم التي تحاول أن تساوي الحقيقة المطلقة بانعكاسها، أو حالة اللاوعي التي تترك إلى الزاوية لتمثل البعض المنسي من تشكل الذات ولكنها في الحقيقة تمثل المنشئ الحقيقي من كل شيء، وهو ما يعيدنا لفلسفة أو أسطورة الكهف عند أفلاطون، فالفكرة المرسومة في ذهننا عن الشيء من خلال تأثيرات الواقع علينا قد لا تكون حقيقية بل مجرد ظلال خادعة، وأن الفهم الحقيقي للحياة مبني عن النظر إليها من زاوية أوسع تحمل فيها أكبر للمتناقضات.

3- ثنائية الشرق والغرب في عتبة كلمة الناشر:

خطاب كلمة الناشر: "أن تتأثر بقصة بلال بن رباح شيء، ولكن أن تتغير حياتك كلها بسبب ذلك شيء آخر تماما.. وأن يحدث ذلك في مجتمع عربي مسلم شيء، ولكن أن يحدث في نيويورك؟ رغم غرابته فهذا ما حدث.. قصة بلال بن رباح تغير مسار حياة أشخاص يعيشون في نيويورك، حياة بعيدة تماما عن أي تغيير وبالذات عن تغيير يأتي من قصة رجل مات قبل أكثر من ألف عام. لكن، ذات يوم.. يصل إميل لأحدهم.. ويتغير كل شيء... هذه قصة ما حدث معهم.. بسبب (بلال).. وما يمكن أن يحدث معك..".

تعد كلمة الناشر أحد الأشكال المناصية التي تقع تحت وصاية الجهة المسؤولة عن عملية النشر، وهي «مطبوع يحتوي على مؤشرات متعلقة بالعمل/الكتاب (...) تكون في نص قصير مختصر في صفحة أو نصف صفحة، قصد تلخيص الكتاب والتعريف به»⁵، وتستهدف البعد التداولي للكتاب انطلاقا من كونها تمثل «إحدى الوسائط الميدولوجية أو الإعلامية التي تكفل للنص مقروئته»⁶، وبالعودة إلى كلمة الناشر المدرجة ضمن الغلاف الخلفي للرواية وهو المعمول به غالبا في بروتوكولات النشر، فدورها الوظيفي في استقطاب القارئ يتطلب توقعها ضمن مجاله البصري لحظة تعرفه على النص، وقد ساهمت كلمة الناشر في ربط العلاقات الدلالية بين النص والنص الموازي، من خلال أسلوب استفهامي يمارس غوايته على الغرائز الاستكشافية عند المتلقي الباحث عن فهم الحبكة السردية التي سوف تبعث حكاية الصحابي الجليل "بلال بن رباح" من جديد في صورة حداثية تعصف بحياة شخصيات غريبة لا تعرف عن الإسلام إلا اسمه، كما أن هذا النص ييوح لقارئه بالبنية المكانية والزمانية التي تجمع بين مكة قبل خمسة عشر قرنا مضى وأمريكا بعد الخمسة عشر قرنا اللاحقة، ليعلن عن بؤار الصراع بين الروحانية الشرقية والمادية الغربية كراويتي نظر مختلفتين يمكن أن يحققا فيها أدقا للحياة عبر مسافة أبعد من كليهما معا.

ثانيا- ثنائية الشرق والغرب من خلال البنية الزمانية:

يتباين زمن السرد في الرواية بين خطين متباعدين يفصل بينهما خمسة عشر قرناً، ما شكّل «تداخلاً في الحركة الزمنية حيث ينسكب الماضي بكل إشارات وتحفيزات وأحداثه على الحاضر بكل ما له من طزاجة اللحظة الحاضرة»⁷، إذ قام الكاتب بخلق بعدين سرديين مختلفين تندمج من خلالها العوالم المتخيلة مع الوقائع التاريخية وتترابط الأحداث بين المادتين المحكية والتاريخية عبر تمفصلات زمنية تتيح استمرارية الحدث بوساطة عناصر تكرارية تحمل عمق التجربة الإنسانية وتتيح لنا إمكانية المقارنة بين البعدين النصيين الذين يخلقهما الارتداد الزمني، واللذين يناقضان التعارض بين الماضي والحاضر ويعبران عن امتدادها عبر خط زمني واحد متصل تحكمه شيفرة موحدة «يمكن أن تعمل في القرن الأول ميلادي والسادس الميلادي، والواحد والعشرين ميلادي»⁸، فالفهم الإنساني للوجود وعلاقته مع الآخر لا تتعلق بدرجة التطور بل بمدى الوعي بفكرة التقبل والتعايش بين الفئات الإنسانية المختلفة، وهو الغاية التي يستهدف الطابع الحكائي المزدوج إبلاغها، من خلال إسقاط قضايا الحاضر على الماضي، وتطويع الماضي في فهم حياة اليوم.

يمكن أن نقسم التمفصلات الزمنية الكبرى في الخطاب الروائي إلى وحدتين زمنيتين منفصلتين ومتصلتين في الآن ذاته، حيث يتناوب السرد بين شخصيات الرواية (أحمد، لائش، بلال) في الحاضر، والسرد على لسان الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه في الماضي، هذا التبادل الزمني يعتمد على تحقيق الاتصال النصي عبر خلق المشهد التكراري بين العالمين السريين، من خلال تشكيل مقابل سردي للتجارب الإنسانية التي مرّ بها الصحابي الجليل، يمثل النظر الذي يحقق فيها أدقا للحدث الدرامي ويساهم في تنامي تطور الشخصيات، حيث يقدم الكاتب ذات الحدث أو القضية عبر شكلين مختلفين أحدهما في بيئة شرقية خلال فترة زمنية محددة هي البعثة المحمدية عبر شخص الصحابي الجليل بلال الحبشي، وأخرى غربية تتنامى الأحداث فيها في القرن الواحد والعشرين (2015)، وذلك عبر مجموعة من الثنائيات الضدية أهمها: الدين والإلحاد، الحرية والعبودية.

يعتمد التناوب الزمني في النص السري على مفهوم "الإسقاط" من خلال بعث سيرة الصحابي الجليل "بلال بن رباح" رضي الله عنه- من جديد بغية استخلاص الشيفرة التي يمكن عدها نمطاً تكرارياً يحقق الرابط الإنساني الذي تتحاور من خلاله العوالم النصية، وتندمج معالم الشرق والغرب في فهم موحد للوجود، ولكن هذا الاندماج جزئي يتحقق عند بعض الشخصيات دون غيرها، لأنه مرتبط في حقيقته بفهم علاقة الصراع بينهما.

إنّ صراع شخصية بلال ضد العنصرية الأمريكية وأشكالها الضمنية ضد السود ورغبته المستميتة في الموت وسعادته المفاجئة بدنو أجله تصور جزءاً من معاناة فئة محددة من آلية تفكير عميقة ذات جذور تاريخية تقسم المجتمع الأمريكي إلى أحرار بيض أمريكيين وعبيد سود أفارقة، وهو ما يفتح التساؤل حول: لماذا لم يحقق الحلم

الأمريكي مبتغاه؟ ولماذا لم يساهم إعلان الحرية لجميع السود في إرجاع حق التساوي بينهم وبين الأمريكيين البيض؟

يقابل الكاتب قانون الحرية للسود في أمريكا بالآلية الجزئية التي جاء بها الإسلام في تحرير العبيد، والتي انطلقت بحفظ كرامتهم كعبيد ثم التنوع في طرق تحريرهم والمحققة لميزة "الاستحقاق"، كما قابل الكاتب أشكال العبودية بقولها المعاصرة بتجارب إنسانية أعمق جسدتها شخصية "كوتنا كونتي" من رواية "جنور"، وهذا التعلق النصي يعد تأسيسا للواقع الحالي الذي يتجلى كانعكاس تاريخي للواقع العبودي الذي عرفه الأفارقة الأمريكيون في زمن سابق.

تعالج الرواية النسق الفكري للعنصرية كقضية تعبر عن رؤية إنسانية للإنسان في حد ذاته، قائمة على التصنيف العرقي واللوني، فصراع السود ضد أشكال العنصرية جاء على لسان شخصية "لايتشا" من خلال قولها: «صراعك الأصعب ليس مع القانون الذي يجعل العبد حرا، بل مع نفسك، مع أصنام صغيرة كبيرة داخلك، تجعلك لا تزال تنظر إلى العبد الذي أصبح حرا، على أنه أقل منك»⁹، وفي تأويل مضاد يصور الكاتب "أحمد خيرى العمري" مشهد أذان "بلال بن رباح" -رضي الله عنه- فوق الكعبة أظهر مكان في الأرض بعد فتح مكة كمشهد إنساني يصور عظمة الفكر الإسلامي المجسد في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فالرسالة المحمدية لم تأت لتنتهي عبادة الأوثان فقط، بل لتصحح الفكر الإنساني عبر مختلف مستوياته وآفاقه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم -بأذان بلال الحبشي- رضي الله عنه- فوق بناء الكعبة، هو هدم لصنم من أصنام مكة هو صنم "العنصرية" و "التفرقة العرقية"، وقد جاء غضب الرسول صلى الله عليه وسلم على الصحابي الكريم "أبيذر" بعد سبه لبلال بن رباح رضي الله عنه بـ «يا ابن السوداء»¹⁰، من خلال قوله له «إنك امرؤ فيك جاهلية»¹¹ ليؤكد بأن الجاهلية هي منظومة فكرية كاملة جاء الإسلام ليهدمها مع الأوثان في ساحة الكعبة الشريفة.

ثالثا- ثنائية الشرق والغرب من خلال البنية المكانية:

يعد المكان جزءا أساسيا من أي تجربة إنسانية، ونزولا مع طبيعة السرد الذي تتعلق من خلاله عوالم خيالية مع وقائع تاريخية مجسدة في شخص الصحابي الجليل "بلال بن رباح" -رضي الله عنه-، تطلب الحكى تنوعا في البيئة المكانية، بين البيئة الغربية باعتبارها تشخيصا لمكانيا للأحداث المسرودة، ف «أي حدث لا يمكن أن يتصور وقوعه إلا ضمن إطار مكاني محدد»¹²، وبين البيئة العربية باعتبارها «تشكيلا روحانيا ووجدانيا»¹³ مشحونا بالقوة الاحائية ومجسد للتجربة الإنسانية التي مر بها الصحابي الجليل، ونوضح ذلك من خلال الجدول التالي:

- مكة: «نظرت إلى مكة ... أول مرة أراها من هذا العلو ... هذه السوق، وهذه دار الندوة حيث اجتمع سادات مكة ليحاربونا ... تلك دار أمية بن خلف حيث كنت أعمل ... هناك دار النبي...»¹⁴. - المدينة: «المكان الذي هاجر له المسلمون هو المدينة، كان اسمها (يثرب) ... ثم تغير تدريجيا إلى المدينة، وكان ذلك يعني أنها أصبحت مثل (المدينة) الأهم، المدينة مع آل التعريف»¹⁵. (...)	الأماكن العربية:
- كوينز: «ولدت في كوينز ونشأت فيها»¹⁶. - بروكلين: «أعيش في بروكلين (نيويورك)»¹⁷. - برونكس: «وهكذا تركنا برونكس، حيث كنا نعيش»¹⁸. - دلاس: «لابد من التوقف غالبا في دلاس»¹⁹. (...)	الأماكن الغربية:

إنّ اعتماد الكاتب على ذكر مدن مختلفة من القطر الأمريكي جاء بهدف إعطاء بعد واقعي للعالم المحكي بغية خلق حالة من التصديق جعله أكثر قابلية للوقوع، وهذا بخلاف تعامله مع الأماكن التاريخية في حياة الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه، والذي صاحبه دفقة شعورية تنمّي المكانة الروحانية لهذه الأماكن فهي تتجاوز مفهوم الإطار الجغرافي أو الطبيعة التضاريسية للمنطقة لتمثل بنية نصية تقود العقل إلى استحضار أبعاد دينية وفكرية لا يمكن عزلها عن الوعي العام بالمكان.

يمثل المكان جزءا من الكيان الاجتماعي، ففهم الإنسان كإنسان بوصفه "كلا" متصل بفهمه كـ "جزء" من محيط عام يضم المكان والزمان والمجتمع، فالمكان بصفة شاملة يمثل ذلك «الكيان الاجتماعي الذي يحتوي خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولنا فشأنه شأن أي إنتاج اجتماعي آخر يحمل جزءا من أخلاقياته وأفكاره ووعي سكانه»²⁰، وبذلك فإن التناقض الحاصل بين الفضاء المكاني الشرقي والغربي في الرواية بين صحاري مكة وبدائيتها والعمران الأمريكي الحديث في صورته المادية هو تصوير مباشر لتباين زوايا النظر وطرق التفكير وهو ما يظهره الجانب السطحي للنص، ولكن ما يضمّره هو تناقض يعكس التوافق، فالكاتب يستهدف لفت انتباه القارئ إلى تشابه آليات التفكير بين المجتمع الجاهلي قبل خمسة عشر قرنا مضت والمجتمع الأمريكي الحديث، فالكبر عند أسياذ مكة لا يكاد يختلف عن كبر بيض أمريكا والأفضلية العرقية والتراتبية اللونية هما جزء مشترك في فهم ظاهرة العنصرية بين المجتمعين، بالإضافة إلى التمرد على الذات الإلهية بين الوثنية القديمة والإلحاد الحديث والنتائج عن فهم خاطئ للوجود، وبذلك نصل إلى أن الآليات الفكرية لا تتصل بالطبيعة المكانية أو مدى التطور

أو البناء الاجتماعي، حيث نلاحظ أنماطا متكررة بين حضارات مختلفة وأزمنة متباعدة وهي تتصل في حقيقتها بمدى فهم علاقة الإنسان بالإنسان كمخلوق، وعلاقة الإنسان بالله كخالق.

رابعا- ثنائية الشرق والغرب من خلال ثنائية الرجل والمرأة:

تعد علاقة الذكورة والأنوثة أحد أبرز الأشكال الفنية المعتمدة في تصوير علاقة الصراع بين الشرق والغرب في الأعمال الأدبية العربية، فالتقديس الأزلي للذكورة في المجتمعات التقليدية يعطيها أفضلية مؤقتة تلغيها علاقتها المؤطرة مع الأنوثة باعتبارها الطرف المرغوب والمستهدف ضمن نطاق العلاقة الثنائية المحدودة بينهما، وانطلاقا من ذلك مثل الرجل عنصر الشرق والمرأة النقيض الغربي في النص الأدبي العربي الذي غالبا ما جاء ضمن نمط مكرر، تمثل في حضور البطل الشرقي المثقف الذي يتوجه نحو الغرب للحصول العلمي فيلتقي بالبطلية الغربية ذات الفكر التحرري، وهي الثنائية التي سبق وتناولتها العديد من النصوص السردية العربية مثل: موسم الهجرة نحو الشمال لطبيب صالح، رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، رواية الأرض والدم لمولود فرعون، رواية ما لا تذروه الرياح لعرار محمد.

يمكن أن نرصد هذه العلاقة انطلاقا من تعامل الكاتب "أحمد خيرى العمري" معها وذلك عبر ثلاث مستويات، نبينها من خلال ما يلي:

1- (شرق / شرق):

تجسد الشرق في الرواية من خلال شخصية "أمجد الحلواني" وهو أستاذ جامعي يعكف على إكمال أطروحة الدكتوراه التي تناولت "تاريخ الشرق الأوسط"، كمنط مكرر للبطل الشرقي المثقف في البيئة الغربية، لكن التعامل مع الشخصية يتزاح عن القالب التوافقي الذي ينطلق من الهجرة، فأجد من أبوين عربيين حسب ما يظهره السرد على لسانه «كنت أمي مغربية، وكان أبي مصريا»²¹، ولكنه ولد بأمريكا ولم يغادر حدودها، وعليه جاءت هذه الشخصية مفرغة من القيم الشرقية تعاني صراعا حادا حول الهوية بين جذورها الشرقية ونشأتها الغربية، وينعكس هذا الصراع على آلية تفكيرها وتشنت انتماؤها، حيث تعلن تارة عن ولائها للحضارة التي نشأت في أحضانها فتقول: «لكني لم أكن عربيا في الحقيقة، لم أشعر يوما أنني عربي، كنت أمريكيا تماما»²²، بينما تبحث تارة أخرى عن جذورها المشرقية داخلها فتقول: «في أعماقي، كانت تؤكد ثمة شيء ينتمي إلى الشرق الأوسط»²³، هذا الصراع الداخلي ترميز لصراع خارجي أكبر تعايشه الهوية العربية، بين الحفاظ على جوهرها الروحاني وثقافتها التاريخية، وبين الانصياع للغزو الثقافي الغربي الذي يمارس غوايته عليها في سبيل النمو بذاتها وملاحقة ركب الحضارة الذي يسبقها.

2- (شرق / غرب):

تمثل حالة التفاعل بين الأقطاب الفاعلة في هذه الثنائية تجسيدا للحالة العامة بين الشرق والغرب، حيث مثل ضعف "أمجد" اتجاه "كرستين" وتمسكه المستميت بها لتحقيق وجودي لهذا الانتماء المزعوم، وهوسه

بتفاصيلها وانقياده لرغباتها رغم إدراكه التام برفضها الداخلي له واستغلالها العلني لعلاقتها به، تمثل رمزي لعلاقة الشرق المنهر بالحضارة الغربية والمولع بتقليدها والراغب في تمثيلها، كشكل من أشكال هوس المغلوب بالغالب، ويصف "أمجد" علاقته بـ "كريستين" قائلا: «وكنّت أحبها بيأس، بولع، كما لو أنّ هذا يورث في جينات الشرقيين، لم أعش في الشرق كي آخذ من هذه العواطف لكني غارق بل أمل في حب امرأة تعيش معي لكنها لا تحبني»²⁴، ويصفها في موقع آخر بقوله: «فكرت أيضا أن كريستين هي بطريقة ما كصخرة سيزيف، أحملها على ظهري في عبث ودون جدوى»²⁵، وهذا التجسيد الرمزي الذي يعبر عن "العجز" تارة وعن "العبثية" تارة أخرى، يقدمها الكاتب "أحمد خيرى العمري" كمحورين مهمين في فهم علاقة الشرق بالغرب، حيث يطرح العجز السؤال حول السبب الذي يجعل من الشرق تابعا ومسيراً، بينما تعبر العبثية عن التقليد كحل يجعله دائماً متأخراً بخطوة وخطوات فلاحقة الآخر تجعل من الأنا دائماً في الخلف، فالرغبة المستمية في المواكبة عن طريق التقليد هي صخرة سيزيفية يحملها الشرق بعبثية نحو اللاشيء للتدحرج به نحو الخلف بصورة تكرارية تعبر عن كونه يسلك المسار الخاطئ نحو وجهته.

3- (غرب- شرق):

تجسد نظرة كريستين نحو أمجد رؤية الغرب نحو الشرق والقائمة على رابطتين أساسيتين هما "الاستغلال" و"الاستحقاق"، فـ "كريستين" تحافظ على علاقتها بـ "أمجد" لتضمن حصولها على مسكن مجاني، كما تستغل حبه لها لتضمن سيطرتها عليه، ورغم كون "أمجد" شخصية أكاديمية ناجحة مساوية لها في تفوقها، إلا أنها تنظر إليه نظرة دونية مصدقة لأفضليتها عليه، فهي تربط بشكل نفسي مدروس بين نواقضه وتصرفاته الشاذة وبين أصوله الشرقية التي تصله بها علاقة جينية فقط، إذ تعتمد إلى استغلال علاقتها معه لفهم طبيعة السلوك البشري بين الفطرة والاكتمساب انطلاقاً من كونها تحضر لرسالة الدكتوراه في علم النفس، وهذا الربط المتعمد بين النواقض والجذور الشرقية كإبط جيني يعبر عن صميم التراتبية العرقية والتي تهدف إلى سيادة أعراق بشرية معينة على حساب غيرها، فهي تفسر تأخره المستمر مثلاً بقولها: «يمكننا أن تثبت مع أمجد أن الالتزام بالوقت مسألة جينية، ولا علاقة لها بالسلوك المكتسب ... ولد وعاش بأمريكا لكنه يتصرف كما لو كان في الشرق الأوسط»²⁶، وفي ذلك تميّط لهذه الرؤية الدونية التي ترى في الشرق تهينة جينية للفشل، وعجزاً كلياً عن الخلق والابتكار، وهي نظرة قائمة على الأفضلية العرقية التي تختم تبعية الشرق للغرب.

الخاتمة:

هدف هذا البحث إلى رصد تجليات ثنائية "الشرق/الغرب" في رواية "شيفرة بلال" للكاتب العراقي "أحمد خيرى العمري"، وقد توصلنا من خلال ذلك إلى مجموعة من النتائج نبينها من خلال ما يلي:

- تعكس العناية النصية بأشكالها المختلفة (العنوان، الغلاف، كلمة الناشر..) حضور ثنائية الشرق والغرب في الرواية كفاعل محتمل على تطور السرد القائم على اندماج مجموعة من العوالم النصية المختلفة فكريا وزمانيا ومكانيا، عبر مجموعة من التقاطعات التي تؤكد على شيفرة وجودية موحدة تحكم فهمنا للحياة.
- عمل الكاتب من خلال حالة التقطع أو التناوب الزمني بين الماضي والحاضر، على خلق مفهوم "الإسقاط" من خلال بعث التجربة الإنسانية التي مر بها الصحابي الجليل "بلال بن رباح" - رضي الله عنه -، بغية استخلاص الأثر الذي يحول سيرته إلى فكرة لا ينتهي تأثيرها ولو بعد خمسة عشر قرنا في مكان لم يكن موجودا يوم وجد.
- عمل الكاتب على تسليط الضوء على التباين في البيئة المكانية بين الشرق في الماضي والغرب في الحاضر، والذي يظهر التناقض لكنه يضم توافقا فكريا يتطلب إعادة النظر في العلاقة الرابطة بين الكيانات الاجتماعية وآليات التفكير المصاحبة لها.
- تعد ثنائية الرجل والمرأة من الأنماط الأدبية العربية المعتمدة في تصوير طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، إذ لم ينزاح الكاتب عن الشكل العام لهذه الثنائية، لكنه عمل على الاشتغال عليها عبر أوجه متعددة من خلال تفاعل الأقطاب الفاعلة في تشكيل مقصدياتها.
- عمل الكاتب على تجسيد ثنائية الشرق والغرب من خلال شكلين أساسيين، يعتمد من خلال أولهما إلى رسم حالة الضعف والعجز الذي يحكم علاقة الشرق اتجاه الغرب، بينما عمل في اتجاه معاكس على العودة بالزمن إلى الوراء ليصور عظمة الفكر الإسلامي المحسد في شخص الصحابي الجليل "بلال بن رباح" رضي الله عنه، مقابل تاريخ غربي صورته رواية "جنود" عبر مشاهد خطف واستعباد ظلامية، وفي ذلك دعوة من الكاتب للبحث عن الكينونة الشرقية من خلال ربطها بالعمق التاريخي والحضاري الذي تحمله، لأن حالة التقليد تعبر في ذاتها عن تبعية مفروضة لن تغير من طبيعة هذه العلاقة.

هوامش:

- ¹ عبد القادر رحيم: علم العنونة، (2010)، دار التكوين (سوريا)، ط1، ص44.
- ² محمد فكري الجزار: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، (1998)، الهيئة المصرية للكتاب (مصر)، ط1، ص10.
- ³ أحمد جبر شعت: جماليات التناص، (2012)، دار مجدلاوي للنشر (الأردن)، ط1، ص76.
- ⁴ عبد الحق بلعابد: عنفوان القراءة ترجمان الكتابة (العتبات في المنجز الروائي العرب)، (2013)، نادي أمها الأدبي (المملكة العربية السعودية)، الانتشار العربي (لبنان)، ط1، ص89.
- ⁵ عبد الحق بلعابد: عتبات (جزار جينات من النص إلى المناس)، (2008)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، ط1، ص91.

- ⁶ لعموري الزاوي: شعرية العتبات النصية، (2013)، دار التنوير (الجزائر)، ط1، ص. 118.
- ⁷ رجاء عيد: التناص نظريا وتطبيقيا -قراءو في الشعر العربي الحديث-، (د.ت)، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص201.
- ⁸ أحمد خيرى العمري: شيفرة بلال، (د.ت)، عصير الكتب (مصر)، ط23، ص.376.
- ⁹ المصدر نفسه، ص.314.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص.282.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص.282.
- ¹² حميد الحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، (2000)، المركز العربي (المغرب)، ط3، ص.65.
- ¹³ إبراهيم نمر موسى: آفاق الرؤية الشعرية -دراسة في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر-، (2005)، وزارة الثقافة الفلسطينية الهيئة العامة للكتاب (فلسطين)، ط1، ص.239.
- ¹⁴ أحمد خيرى العمري: شيفرة بلال، ص.330.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 162-163.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص.13.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص.7.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 24.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 191.
- ²⁰ الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي -دراسات في روايات نجيب الكيلاني، (2010)، عالم الكتب الحديث (الأردن)، ط1، ص.190.
- ²¹ أحمد خيرى العمري: شيفرة بلال، ص 13.
- ²² المصدر نفسه، ص.13.
- ²³ المصدر نفسه، ص 13.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص9-10.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص.49.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص.48.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم نمر موسى: آفاق الرؤية الشعرية -دراسة في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر-، (2005)، وزارة الثقافة الفلسطينية الهيئة العامة للكتاب (فلسطين)، ط1.
- 2- أحمد جبر شعت: جاليات التناص، (2012)، دار مجدلاوي للنشر (الأردن)، ط1.
- 3- أحمد خيرى العمري: شيفرة بلال، (د.ت)، عصير الكتب (مصر)، ط23.
- 4- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي -دراسات في روايات نجيب الكيلاني، (2010)، عالم الكتب الحديث (الأردن)، ط1.

- 5- حميد لمحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، (2000)، المركز العربي (المغرب)، ط.3.
- 6- رجاء عيد: التناص نظريا وتطبيقيا -قراءو في الشعر العربي الحديث-، (د.ت)، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط.
- 7- عبد القادر رحيم: علم العنونة، (2010)، دار التكوين (سوريا)، ط.1.
- 8- عبد الحق بلعابد: عتبات (جبرار جينات من النص إلى المناص)، (2008)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، الدار العربية للعلوم ناشرون (لبنان)، ط.1.
- 9- عبد الحق بلعابد: عنفوان القراءة ترجان الكتابة (العتبات في المنجز الروائي العرب)، (2013)، نادي أمها الأدبي (المملكة العربية السعودية)، الانتشار العربي (لبنان)، ط.1.
- 10- لعموري الزاوي: شعرية العتبات النصية، (2013)، دار التنوير (الجزائر)، ط.1.
- 11- محمد فكري الجزار: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، (1998)، الهيئة المصرية للكتاب (مصر)، ط.1.